الإبداع فعل مقاومة
ذاكرة الجزائر في ثلاثية أحلام مستغانمي

Creativity as an Act of Resistance
Memory of Algeria in Ahlam Mosteghanemi' s Trilogy

د. سعيـدة تومي

جامعة العقيد آكلي محند أولحاج – البويرة (الجزائر)

toumi.saida10@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2021/05/01 **تاريخ القبول: 2021/06/11**

ملخص:

برزت النصوص السردية كهوية رؤيوية راقية بمقوّماتها الجمالية والفنية في تلافيف الأدب كخطاب سردي مشوّق وكبنية نصيّة مشحونة بالرمزية والإبداعية، وبأطياف كثيرة من الدلالات والمعاني والقيّم التي تجسّد في مجملّها عملا فنيّا راقيا، يستقرئ الماضي ليبني المستقبل وعيًا وأملاً وتحديًا.

تعدّ الرواية إحدى الأشكال السردية الأكثر حضورا وفاعلية في الساحة الأدبية لدى جمهور القراء المتلقي، ذلك أنها تحمل في طيّاتها تفاصيل حياة الانسان العربي آلامه وأماله خيباته وأحلامه وطموحاته، كما استطاعت أن تختصر مسافات كبيرة بين الأجناس الأدبية فاستوعبتها في نصّها السردي ما جعلها أكثر انفتاحا على العالم.

لقد كتبت أحلام مستغانمي ثلاثيتها السردية في منتصف 1988م إلى منتصف 2002م، وشكلت بها حدثا ثقافيا على درجة عالية من التفرد فهي كنسيج روائي أقرب إلى رثاء ضياع الحلم باحتراف الصورة الشعرية، والتوغل الموجع في الذاكرة التاريخية الوطنية، كما أنّ الكاتبة ارتبطت بوطنها المحلي هو "الجزائر" ليصل إلى مشارف العالم العربي وضفاف تصوّر المأساة العربية.

الكلمات المفتاحية: الرواية، السرد، أحلام مستغانمي، الثلاثية، ذاكرة الجزائر.

Abstract:

Narrative texts have emerged as a sophisticated visionary identity with aesthetic and artistic element in literature as interesting and suspenseful narrative discourse and as a textual structure charged with symbolism and creativity, and with many spectrums of connotations, meanings and values that embody in their entirety an artistically sophisticated work that extrapolates the past to build an aware, hopeful and challenging future. The novel is considered one of the most prevalent and effective narrative forms in the literary scenes among readers, as it carries and expresses the details of the Arab man's life: his pains and hopes, disappointments, dreams and aspirations. It was also able to shorten large distances between literary genres, so it absorbed it in its narrative text, confirming its open-ness to the world. Ahlem Mosteghanemi wrote her trilogy in mid-1988 to mid-2002, bring about a cultural event with a high degree of uniqueness. The trilogy is a fictional fabric that is closer to the lament of the dream loss with a high sense of taste through a poetic image, and through a painful penetration into the national historical memory. Likewise, the writer wrote about homeland, "Algeria" to reach the borders of the Arab world and the banks of the Arab tragedy .

Keywords: Novel, Narration, Ahlem Mosteghanemi, The Trilogy, Memory of Algeria

مقدمة:

برزت النصوص السردية كهوية رؤيوية راقية بمقوّماتها الجمالية والفنية في تلافيف الأدب كخطاب سردي مشوّق وكبنية نصيّة مشحونة بالرمزية والإبداعية، وبأطياف كثيرة من الدلالات والمعاني والقيّم التي تجسّد في مجملّها عملا فنيّا راقيا، يستقرئ الماضي ليبني المستقبل وعيًا وأملاً وتحديًا.

ويعدّ النص الروائي أحد الأشكال السردية الأكثر انتشارا في الساحة الأدبية لدى جمهور القراء المتلقي، ذلك أنّه يحمل بين ثناياه آلام الإنسان وأماله، خيباته وأحلامه وطموحاته، كما استطاع أن يختصر مسافات كبيرة بين الأجناس الأدبية فاستوعبها في نصّه السردي ما جعله أكثر انفتاحا على العالم.

لا تختلف الرواية الجزائرية عن مثيلتها العربية في تناولها لأحوال المجتمع وقضاياه ورؤاه تختزل الواقع لتقدّمه في طابع سردي مثير، تترسّم طريقا من الأحداث والمفارقات والتفاصيل الحياتية بلغة مغايرة لتكشف أيضا عن وعي الذات الكاتبة بالمجتمع وأحداثه التاريخية ومتغيراته الحضارية، مستوعبة التاريخ والهوية والحضارة الإنسانية في أدقّ معانيها.

شكلّت ثلاثية أحلام مستغانمي مشروعا سرديا متميّزا، تخطى المألوف وفارق المعهود لخصت في مضمونها العام تجربة إنسانية نضالية، وخطّت بحروف من ذهب معاناة شعب بأكمله، اختزلت مشاعر الألم والأمل، الحب والغربة والحنين، كما اختصرت التاريخ الهوية، الوجع الجزائري والخيبات الوطنية والقومية.

ولهذا ارتأينا – مراعاة للوقت والمقام – الوقوف عند محطات من الذاكرة الوطنية التاريخية في ثلاثية أحلام مستغانمي التي كتبتها من منتصف 1988 إلى منتصف 2002 وأحدثت بها حدثا ثقافيا على درجة عالية من التفرد فهي كنسيج روائي أقرب إلى رثاء ضياع الحلم باحتراف الصورة الشعرية، والتوغل الموجع في الذاكرة التاريخية للجزائر.

1– الثورة الجزائرية في ثلاثية أحلام مستغانمي/ الذاكرة التي لا تموت:

شكّلت الثورة الجزائرية ولا تزال المرجع الأساس والمنبع الهام للكتابات الإبداعية الجزائرية بكلّ أشكالها شعرا ونثرا، فالأدب «امتداد في الزمن يلتقط مادته مما هو ظرفي ويعلو عليه، والثورة ذاتها من حيث هي حدث كبير تلقي بظلالها على حياة الناس وتملأ عليهم أوقاتهم فإنها تجعلهم ينصرفون لقراءة الأدب وكتابته»[1].

كما لا يخفى على أحد وهو يتصفح الأدب الجزائري أن يلمس ذلك الحضور القويّ للتاريخ الجزائري والثورة الجزائرية وشخصياتها وأحداثها ومعاركها، فقد كانت ومازالت هاجسا أساسيا يحرك عملية الكتابة، والحقيقة أنّ هذا الأمر لا يدعو إلى الغرابة مادامت الجزائر حديثة عهد بحرب التحرير[2].

إنّ الحديث عن الثورة هو الحديث عن الاحتلال في عمقه التاريخي، مشاهدة أو رواية، ولذلك التعبير عن الثورة يعني الوقوف على رحلة زمنية شاقة ومريرة، حقائق ومواقف وآثار ومآس وخراب ودمار وثقافة، وبطولة ونضال، ضريبة كبيرة، كلّ ذلك بحاجة إلى توثيق موضوعي وحسّ إبداعي مواز يتحمّل مسؤوليته الجميع.

تحاول أحلام مستغانمي بمختلف رواياتها أن تسهم في تشخيص مختلف الوضعيات التي عاشها المجتمع فما كتبته عن الثورة يحمل هاجسا وطنيا صادقا وخطابا إنسانيا مثيرا لا مبالغة فيه، فقد كانت مصدر إلهام بما تحمل من ألم وأمل وما سبّبه العدو عاجلا وآجلا للوطن والإنسان، ولهذا كانت رواية "ذاكرة الجسد" منذ الوهلة الأولى تتنفس عبق الثورة تقرأ الماضي في زمن الحاضر ،إنّها ترصد تغيرات جزائر ما بعد الاستقلال تحت أصداء الثورة وهي في ذلك تكتب خطابا جديدا يستند إلى تاريخ الجزائر الثوري، «فقد استحضرت فترة من تاريخ الجزائر في قراءة ثانية لها تتجاوز فيها إنجازات الماضي وأمجاده لتشكل نصا يمتد بين زمنين مختلفين ينشد وطنا الحرية قدره، لكنها بدأت تذبل وتفقد بريقها ومعانيها السامية حين استحوذ عليها أصحاب البطون المنتفخة، ذلك الوطن الذي انتشرت فيه الأنانيات الضياع، الملل، كما الرتابة، وأسدلت ظلالها عليه مظاهر دخيلة البذخ، الرفاهية ...»[3].

ترصد الرواية بداية الثورة التحريرية، بداية الأحلام وأمل الانتصار وها هي مستغانمي تختار بعناية بالغة التاريخ والتوقيت لجعل بطل الرواية يكتب كتابه، إنّه تاريخ أول نوفمبر:

"ربما غدا أبدأ الكتابة حقا.

أحبّ دائما أن ترتبط الأشياء الهامة في حياتي بتاريخ ما ... يكون غمزة لذاكرة أخرى.

أغرتني هذه الفكرة من جديد وأنا أستمع إلى الأخبار هذا المساء وأكتشف، أنا الذي فقدت علاقتي بالزمن أنّ غدا سيكون أول نوفمبر ... فهل يمكن لي ألا أختار تاريخا كهذا لأبدأ به هذا الكتاب؟"[4].

إنّه تاريخ لا يتكرر، تاريخ ثورة الشعب الجزائري ضدّ الاستدمار الفرنسي، وهو أولى الخطوات في استرجاع البطل "خالد بن طوبال" صفحات من التاريخ عبر طفولته وشبابه

وكذا ذكريات كثيرة للثورة ومشاركته فيها، وهكذا تتوالى المشاهد السردية بأسلوب دقيق وذكاء حاد، فأحداث الرواية لا تبقينا في الماضي بل تدخلُنا إليه مرارا ثم تعيدنا إلى الحاضر بأحداثه وتفاصيله.

1-1- جغرافيا الثورة: ها هو البطل يعود إلى بداية الثورة بعد أن استيقظ الماضي بداخله فتزاحمت الذكريات وأعادته لسنوات مضت، سنوات المقاومة الصمود، تذكره بتضاريس قسنطينة الوعرة، بغاباتها وممراتها وجبالها:

" أحاول أن أرى شيئا آخر غير نفسي، وإذا النافذة تطل علي...
تمتد أمامي غابات الغار والبلوط، وتزحف نحوي قسنطينة ملتحفة ملاءتها القديمة، وكلّ تلك الأدغال والجروف والممرات السرية التي كنت يوما أعرفها، والتي كانت تحيط بهذه المدينة كحزام أمان، فتوصلك مسالكها المتشعبة، وغاباتها الكثيفة إلى القواعد السرية للمجاهدين.
وكأنها تشرح لك شجرة بعد شجرة ومغامرة بعد أخرى
إنّ كلّ الطرق في هذه المدينة العربية العريقة تؤدي إلى الصمود.
وإنّ كلّ الغابات والصخور هنا قد سبقتك على الانخراط في صفوف الثورة..."[5].

تصف أحلام مستغانمي على لسان بطلها في "ذاكرة الجسد" جغرافيا المنطقة التي ساعدت على الثورة، قاومت الاستعمار وصمدت في وجهه وتحدت قوّته، كما شاركت الثوار مسيرتهم النضالية، فكانت مدينتهم وبيتهم ومدرستهم الوحيدة حيث إما الشهادة أو الحرية: "ذات يوم منذ أكثر من ثلاثين سنة سلكت هذه الطرق واخترت أن تكون تلك الجبال بيتي ومدرستي السرية التي أتعلم فيها المادة الوحيدة الممنوعة من التدريس، وكنت أدري أنه ليس من بين خريجيها من دفعة ثالثة وأنّ قدري سيكون مختصرا بين المساحة الفاصلة بين الحرية .. والموت"[6].

1-2- الطفولة المبتورة: كانت الثورة الجزائرية سببا في النضج والوعي المبكّر لدى الشباب الجزائري، شباب اختصر عمره واندفع إلى الجهاد، لم يأبه لطفولته ولم يعشها

كأقرانه، وفي هذا يصف بطل الرواية حيثيات انضمامه لصفوف الثوار، هروبا إلى الموت بعيدا عن إحساس قاتل باليتم: "وكنت يتيما وكنت أعي ذلك بعمق في كلّ لحظة، فالجوع إلى الحنان شعور مخيف وموجع، يظلّ ينخر فيك من الداخل ويلازمك (...) أكان التحاقي بالجبهة آنذاك محاولة غير معلنة للبحث عن موت أجمل خارج تلك الأحاسيس المرضية (...) كانت الثورة تدخل عامها الثاني ويتمي يدخل شهره الثالث ولم أعد أذكر الآن بالتحديد في أية لحظة بالذات أخذ الوطن ملامح الأمومة وأعطاني ما لم أتوقعه من الحنان الغامض"(7).

إنّها الثورة الجزائرية التي غيّرت مسار حياة الكثيرين وحوّلتهم من أطفال إلى رجال بترت طفولتهم ووضعتهم في مواجهة الموت، ومع الواقع المعاش حيث لا مجال فيه لأحلام الأطفال وإنما نضال الرجال:"بدأت وقتها فقط أتحول على يدّ الثورة إلى رجل وكأنّ الرتبة التي كنت أحملها قد منحتني شهادة بالشفاء من ذاكرتي ...وطفولتي"(8).

1-3- المعارك: تستعرض أحلام مستغانمي في "ذاكرة الجسد" يوميات الثوار إبّان الثورة التحريرية، فقد كانوا جنبا إلى جنب مع الموت، لا تختلف أيامهم إلا باختلاف عدد المعارك والشهداء: "كان الموت يمشي ويتنفس معنا ... وكانت الأيام تعود قاسية دائما لا تختلف عما سبقتها سوى بعدد شهدائها"(9).

كانت معارك الجزائريين ضدّ المستدمر الفرنسي معارك ضارية لا تراجع فيها ولا استسلام، لا وقت فيها إلا للعمليات الفدائية والمعارك المتلاحقة "كنت ألقي بنفسي على الموت في كلّ مرة وكأنني أتحداهأو كأنني أريد بذلك أن يأخذني بدل رفاقي(...) وكان سي الطاهر بعد أكثر من معركة ناجحة اشتركت فيها قد بدأ تدريجيا يعتمد عليّ في المهمات الصعبة ويكلفني بالمهمات الأكثر خطورة (...) وجاءت تلك المعركة الضارية التي دارت على مشارف باتنة (...) فقدنا فيها ستة مجاهدين وكنت أنا فيها من عداد الجرحى"(10).

تصادفنا أيضا معارك استشهد فيها مصطفى بن بولعيد ورفاقه الذين فرّوا بأعجوبة من السجن: "سقط القائد مصطفى بن بولعيد وبعض من فروا معه شهداء في معارك أخرى لا تقل شجاعة عن عملية فرارهم فتصدّروا برحيلهم كتب التاريخ الجزائري وأهم الشوارع والمنشآت الجزائرية"[11].

1-4- المظاهرات والاعتقالات والسجون: وهو جانب آخر من جوانب الثورة التحريرية، حيث كان المستدمر الفرنسي يزج بالمجاهدين في السجون لتعذيبهم وإرغامهم على الإفصاح بأسرار الثورة والثوار، فقد حلّ السارد في السجن مرغما لا مخيّرا. وفي هذا المكان المغلق الذي كان عنوانا لطمس الحريات وتقييدها، يتحول السجن إلى مكان ينتشر فيه الوعي الثوري والقومي بين المحبوسين، وهو المكان الذي يمّر عليه السارد مثقلا بالذكريات الخاصة بالراوي: "في سجن الكديا كان موعدي النضالي الأول (سي طاهر) كان موعدا مشحونا بالأحاسيس المتطرفة وبدهشة الاعتقال الأول بعنوانه وبخوفه ... لكنّه كان يخفي عني كلّ شفقته تلك، مرددا لمن يريد سماعه: لقد خلقت السجون للرجال"[12].

وهو أيضا يسجل أحداثا خاصة بالثورة الجزائرية وتحديدا مظاهرات الثامن من ماي 1945: "كان سجن الكديا وقتها ككل سجون الشرق الجزائري يعاني فجأة من فائض رجولة، إثر مظاهرات 8 ماي 1945 التي قدّمت فيها قسنطينة وسطيف وضواحيها أول عربون للثورة، متمثلا في دفعة أولى من عدة آلاف من الشهداء سقطوا في مظاهرة واحدة وعشرات الألاف من المساجين الذين ضاقت بهم الزنزانات مما جعل الفرنسيين يرتكبون أكبر حماقاتهم، وهم يجمعون لعدة أشهر بين السجناء السياسيين، وسجناء الحق العام في زنزانات يجاوز أحيانا عدد نزلائها العشرين معتقلا.

وهكذا جعلوا عدوى الثورة تنتقل إلى مساجين الحق العام الذين وجدوا فرصة للوعي السياسي، ولغسل شرفهم بالانضمام إلى الثورة"[13].

إنّ هذا المكان المغلق هو «مصدر المرارة والألم تنضح به مشاعر الشخصيات التي بداخله»[14] لأنّ فقدان الحرية داخل هذا الفضاء أفضى إلى نوع من الالتحام بين أفراده

بين المحكومين للحق العام والمعتقلين في المظاهرات ما انعكس إيجابا على الثورة والثوار فكان فضاء تؤسس فيه خريطة الطريق المستقبلية للثورة الجزائرية.

ويتجلى سجن الكديا أيضا في كونه مصدرا للخوف واستلاب الرجولة فقد مارس الاستدمار الفرنسي كلّ أساليب التعذيب في حق السجناء، وها هو المجاهد بلال، مخطط المظاهرة التي جرت عند جسر سيدي راشد قد "قضى سنتين في السجن والتعذيب ترك فيهما جلده على آلات التعذيب....اعترف قبل موته ببضعة أشهر لصديقه الوحيد أنّهم عندما عذبوه تعمدوا تشويه رجولته وقضوا عليها إلى الأبد"[15].

يشكل سجن الكديا في مقطع آخر فضاء للتحدي وعنوانا للصمود وإثباتا للذات: "سنة 1955 أي عشر سنوات بالضبط عاد هذا السجن للصدارة بدفعة جديدة لسجناء استثنائيين كانت فرنسا تعدّ لهم عقابا استثنائيا.

في الزنزانة رقم 8 المعدة لانتظار الموت كان ثلاثون من قادة الثورة ورجالها الأوائل ينتظرون موثقين، تنفيذ الإعدام عليهم بينهم مصطفى بن بولعيد والطاهر الزبيري ومحمد لايفا وإبراهيم الطيب رفيق ديدوش مراد وباجي مختار وآخرون.

كان كلّ شيء معدا للموت يومها .....

يوم 10 نوفمبر 1955 بعد صلاة المغرب وبين الساعة السابعة والثامنة مساء بالتحديد كان مصطفى ومعه عشرة آخرون من رفاقه قد هربوا من الكديا، وقاموا بأغرب عملية هروب من زنزانة لم يغادرها أحد سوى إلى المقصلة"[16].

في كلّ النماذج التي قدمناها يصوّر سجن الكديا أحداثا تاريخية مرت بها الجزائر وقت الثورة، تجارب المجاهدين الذين تحملوا شتى أنواع العذاب فيه، ولكنه يحضر أيضا في صورة الحاضر عندما يمر عليه الراوي من جديد بعد 37 سنة ومع ذلك مرور السنوات لا يمكنها أن تمحي ذكريات كثيرة نقشت في الذاكرة ولن تُنسى: "ولدت كلّ هذه الأفكار في ذهني وأنا أعبر ذلك الشارع، وألتقي بعد 37 سنة مع جدران سجن كنت يوما أراها من الداخل.

ولكن هل يصبح السجن شيئا آخر لمجرد أننا ننظر إليه من الخارج، وهل يمكن للعين أن تلغي الذاكرة اليوم، وهل يمكن لذاكرة أن تلغي أخرى، كان سجن الكديا جزءا من ذاكرتي الأولى التي لن تمحوها الأيام"[17].

في ما قدّمناه من نماذج يقف سجن الكُديا بين طرفي نقيض الزمن الماضي والزمن الحاضر، غير أنّ القصص المؤلمة والمدهشة التي حدثت فيه تجعلها تلغي الحاضر، ليبقى سجن الكُديا رمزا للثورة والثوار مهما تعاقبت عليه السنوات، إنها صور تعيد رسم التاريخ الذي لا يموت في ذكريات الجزائريين.

1-5- شخصيات الثورة الجزائرية: لا يمكن بأيّ حال من الأحوال حصر عدد وأسماء شهداء الجزائر منذ دخول المستدمر الفرنسي أراضينا، ولكن ما تضمنته "ذاكرة الجسد" من أسماء وقصص لبعض الشهداء والمجاهدين يكشف بسالة وشجاعة وكرامة شهداء الجزائر جميعا، ففي معرض الرواية نجد جملة من الأسماء لشخصيات الثورة الجزائرية منهم "سي الطاهر، مصطفى بن بولعيد، والطاهر الزبيري، ومحمد لايفا، وإبراهيم الطيب رفيق ديدوش مراد وباجي مختار، إسماعيل شعلال، عبد الكريم بن وطاف والمجاهد بلال حسين".

الأجمل ما في رواية "ذاكرة الجسد" أنها تضمنت أسماء حقيقية لشهداء ومجاهدي الثورة الجزائرية، تؤكد ذلك على لسان البطل: "وحدها أسماء الشهداء غير قابلة للتزوير لأنّ من حقهم علينا أن نذكرهم بأسمائهم كاملة، كما من حق هذا الوطن علينا أن نفضح من خانوه وبنوا مجدهم على دماره، وثروتهم على بؤسه، ما دام لا يوجد هناك من يحاسبهم"[18].

تضمنت ذاكرة الجسد صفحات كثيرة من تاريخ الثورة التحريرية وتفاصيل مختلفة عن الثوار وحياتهم وطرق استشهادهم، وكشفت تضاريس قسنطينة الوعرة (الجزائر)، واحتفت بأبطال الجزائر شهداء ومجاهدين، ولكن الوطن في ثلاثية أحلام مستغانمي بدءا بـ"فوضى الحواس" ثم " عابر سرير" كان له وجه آخر، وجه مُظْلِم مُعْتِم، إنّه زمن المأساة الوطنية، زمن الوجع والخيبة زمن ضياع الإنسان. وهو ما سنكشف عن تفاصيله في المحور الثاني من هذه الورقة البحثية.

2– المأساة الوطنية/ الوجه الآخر للوطن والتاريخ:

أفاضت المأساة الوطنية بتداعياتها الكثيرة سيل الإبداع الجزائري، وهو ما وقفنا عليه أيضا في ثلاثية أحلام مستغانمي، فقد بدأت أحداث رواية "ذاكرة الجسد" برجوع البطل خالد بن طوبال إلى أرض الوطن إثر وفاة أخيه في أحداث مظاهرات أكتوبر 1988م وأحداث الفوضى التي عاشتها الجزائر لتمتد بعد ذلك لسنوات طِوال استعرضتها في روايتيها اللاحقتين: "فوضى الحواس" و"عابر سرير". جاء في "ذاكرة الجسد": "ذات يوم من أكتوبر 1988 جاء خبر موته هكذا صاعقة يحملها خط هاتفي مشوش (...) كنت على علم بتلك الأحداث التي هزّت البلاد، والتي كانت الجرائد ونشرات الأخبار الفرنسية تتسابق بنقلها مصورة، مفصلة، مطوّلة باهتمام لا يخلو من الشماتة (...) مات حسان خطأ برصاصة خاطئة على رصيف الحلم"[19].

تأتي المرحلة الأولى لما بعد الاستقلال ولكن هذه المرة في روايتها "فوضى الحواس" لتقدّم للقارئ مراحل أخرى من التاريخ تصف فيها النزاعات الداخلية بين زعماء الثورة في حديث لها عن ظروف وملابسات استقدام المجاهد "محمد بوضياف" رئيسا للجزائر: "فما كادت الجزائر تنال استقلالها ويصبح "الزعماء الخمسة أحرارا حتى أرسل بن بلّة وقد أصبح رئيسا من يقبض على رفيق نضاله محمد بوضياف في حزيران 1963، وهو يغادر بيته واقتيد بوضياف من مكان إلى مكان. حتى انتهى به المطاف في معتقلات ضائعة في غياهب الصحراء حيث خبر رجل الثورة الجزائرية الأول قبل غيره مهانة أن يكون لك وطن أقسى عليك من أعدائه. وهو ما اكتشفه بعده بسنتين بن بلّة نفسه عندما جاء بومدين ... فأزاحه من السلطة ورمى به في السجن ليخرج منه بعد خمسة عشر عاما عجوزا. أما بوضياف الذي لم يطالب يوما بالسلطة ... تذكروه هكذا فجأة بعد ثلاثين عاما"[20].

ولأنّه راهن على التغيير وكشف الفساد والمفسدين لم تمهله المؤامرات سوى 166 يوما فتم اغتياله في التاسع والعشرين من جوان عام 1992م، كان محمد بوضياف قد عمل برنامجا أو مخططا لإلقاء خطابات عبر جميع نواحي الوطن، وأثناء إلقائه خطابا بالمركز

الثقافي بمدينة عنابة وبعد ترديد الرئيس بوضياف لعبارة: إن تقدّم الشعوب راجع إلى العلم والإسلام ... تنفجر قنبلة في المنصة الرئاسية ليضاف بوضياف إلى قائمة شهداء الكلمة والمواقف، وهو تاريخ بداية المأساة الوطنية وحلول النكسة، وهو ما استعرضته أحلام مستغانمي في الرواية الثانية "فوضى الحواس": "كنا في نهاية حزيران (...) رحت أتابع بين حين وآخر خطاب بوضياف الذي كان التلفزيون ينقله مباشرة من دار الثقافة في عنابة ولكن لم يكن يصلني منه الكثير فاكتفيت بتأمله لأوّل مرّة دون أن أدري أنني أتأمل ذلك الرجل في حضوره الأخير (...) وكان بوضياف في وقفته الأخيرة تلك موليا ظهره إلى ستار القدر أو ستار الغدر (...) لا أدري عن أيّ شيء كان يتحدث لحظتها، أذكر أنّ آخر كلمة قالها كانت "الإسلام" وقبل أن ينهي جملته كان أحدهم من المسؤولين عن أمنه يخرج إلى المنصة من وراء الستار الموجود على بعد خطوة من ظهره ويلقي قنبلة تمويهية جعل دوّيها الحضور ينبطحون جميهم أرضا. ثم راح يفرغ سلاحه في جسد بوضياف هكذا مباشرة أمام أعين المشاهدين"[21].

هكذا كانت عودة بوضياف، عاد إلى وطن لم يعد يعرفه، ليموت بعد 166 يوما فقط وتصبح الجزائر على شفير الهاوية، بدأت حالة الانفلات الأمني وفُتِح باب العنف على مصراعيه، كما قدّمت الرواية موت الصحفي عبد الحق رمزا لجملة الاغتيالات العديدة في حق الصحفيين والمثقفين، وتتصاعد وتيرة العنف، لتشير أيضا إلى مشاهد القتل والتصفيات الجسدية الفردية التي شهدها تاريخ الجزائر في تلك المرحلة، والمجازر الجماعية أيضا كمجزرة بن طلحة التي تحولت إلى نقطة سوداء في تاريخنا:"منذ أن سقط بوضياف قتيلا مباشرة على شاشة التلفزيون أمام ملايين الناس، كان واضحا أنّ موسم الصيد قد فتح، وأصبح السؤال بعد كلّ موت ... من سيكون دوره الآن"[22].

فُتح باب الاغتيالات واختلط الحابل بالنابل ليصعُب التعرف على المجرم الضحية في الوقت نفسه، فها هي أحلام مستغانمي تسرد في روايتها "فوضى الحواس" يوميات الجزائريين في مرحلة الأزمة الوطنية واصفة الشوارع ووجوه الناس وألبستهم: "تنتابني حالة لم أعرفها من

قبل: مزيج من الحزن والذهول والذعر والغثيان، وأنا أواجه رهطا من الناس، لم أصادف مثلهم في حياتي، أناس بمظهر مخيف ووجوه مغلقة ونظرات عدوانية، بعضهم في ثياب عادية وآخرون ملتحون، يرددون شعاراتهم داخل زي أفغاني، أحدهم حليق الرأس في بذلة رياضية (...) وآخر جالس دون وجه ولا ملامح، وآثار ضرب واضحة عليه. بينما ينتقل العسكريون بلثام أسود شبيه بجوارب صوفية تخفي رؤوسهم ..."[23].

وهو واقع الحال في جزائر الأزمة، فأحلام فيما عرضناه قد ركزت على المظاهر الحسية كاللباس وعلامات الوجه ونظرات العيون، ويمكن أن نضيف أيضا حالة اليأس النفسي والإحباط الجماعي التي دخل فيها المجتمع الجزائري كاملا، وها هي أحلام مستغانمي على لسان شقيق البطلة تكشف تذمره من انشغالها الدائم بالكتابة في زمن لم يعد للقلم فيه من جدوى، إنّه زمن الحرائق، لا مكان فيه إلا للسلاح: "... وكذلك اليوم الذي زارني فيه وفاجأني، جالسة أمام أوراقي، وكنّا في عز تلك الفجائع، وما تلاها من إهانات، فراح يؤنبني وكأنني ارتكبت ذنبا في حقّ أحد، مرددا:

– لا أفهم من أين لك القدرة على مواصلة الكتابة وكأنّ شيئا لم يحدث، لا هذه الأرض التي تتحرك تحت قدميك .. ولا هذا الدمار الذي ينتظر أمة بكاملها منعاك من الكتابة .. توقفي .. تأملي الخراب حولك .. لاجدوى مما تكتبين"[24].

ولكي تكتمل الثلاثية نعرج على الرواية الأخيرة منها **"عابر سرير"** والتي عادت فيها أحلام مستغانمي إلى الحديث عن بداية المأساة الوطنية وتحديدا الحديث عن مظاهرات أكتوبر 1988م وأحداث الشغب والفوضى التي عاشتها الجزائر فيما بعد، وها هو البطل فيها يسرد تفاصيل عن حياته وإصابته في يده اليسرى: "كنت أتماثل للشفاء من رصاصتين تلقيتهما في ذراعي اليسرى وأنا أحاول التقاط صور للمتظاهرين أثناء أحداث أكتوبر 1988م كانت البلاد تشهد أوّل تظاهرة شعبية لها منذ الاستقلال والغضب ينزل إلى الشوارع لأوّل مرّة ومعه الرصاص والدمار والفوضى"[25].

وتتلاحق الأحداث التاريخية في ثنايا روايتها فتروي تفاصيل العشرية السوداء، زمن القتل العشوائي، وها هي تصف على لسان البطل صباح إحدى القرى الجزائرية التي زارها الموت ليلا ليترك وراءه عددا غير معروف من القتلى: "استوقفتنا قرية لم تستيقظ من كابوسها، ومازالت مذهولة أمام موتاها، لم يكن ثمة من خوف، بعد أن عاد الموت ليختبئ في الغابات المنيعة المجاورة، محاطا بغنائمه وسباياه من العذراوات، ولن يخرج إلا في غارة ليلية على قرية أخرى، شاهرا أدوات قتله البدائية التي اختارها بنية معلنة للتنكيل بضحاياه"[26].

وتحضر أيضا مجزرة بن طلحة التي كانت ولاتزال نقطة سوداء في تاريخنا، مجازر جماعية وقتلى في كل مكان، مجزرة مروعة لم يسلم منها أحد لا الرجال ولا النساء ولا حتى الأطفال، هي ذكرى لا تنسى، ستبقى خالدة في أذهان ضحاياها، مذبحة هزّت العالم ومنحته صورة أخرى للجزائر إنها "الجزائر الدامية"، بعد ذلك جابت العالم صورة تسمى "مادونا بن طلحة" التقطها حسين زاورار وفازت بجائزة الصورة الصحفية العالمية في عام 1997. وقد أظهرت الصورة سيدة جزائرية ثكلى تنتظر خارج مستشفى زميرلي، والتي أصبحت رمزًا للمذبحة[27].

في رواية "عابر سرير" وقفنا على سرد أحلام مستغانمي لهذه المذبحة وحديث عن جائزة الصورة أيضا: "كان حسين عند وصوله إلى قرية بن طلحة، قد وجد نفسه أمام أكثر من ثلاثمئة جثة ممددة في أكفانها، فتوجه إلى مستشفى بن موسى حيث أخذ صورة لتلك المرأة التي فاجأها تنتحب والتي قيل أنها فقدت أولادها السبعة في تلك المذبحة. بعد ذلك عندما انتشرت الصورة وجابت العالم، اكتشف حسين أنّ المرأة ما كانت أم الأولاد بل خالتهم، كان قد أخذ صورة للموت في كامل خدعته، فكلّ عبثية الحرب كانت تختصر في صورة امرأة"[28].

إنّه زمن الأسئلة التي لا تنتهي، ولا وقت لأحد للإجابة، زمن الضياع، زمن الحيرة، من القاتل؟ ومن المقتول؟ وما ذنب الأطفال في كلّ هذا؟ وما الذي فعله الشجر ليحترق هذه

المرة على يد الدولة الجزائرية التي قصفته قصفا جوّيا شاملا حتى لا تترك للإرهابيين فرصة للبقاء، بعد أن احترق ذات مرة على يد فرنسا لكي لا تترك للمجاهدين أيّ مهرب.

وهو وصف موجع وحزين قدّمته أحلام مستغانمي: "فاجأني منظر موجع لغابة كانت على مشارف تلك القرية، وتمّ بعد زيارتي الأخيرة حرقها حرقا تاما من قبل السلطات لإجبار الإرهابيين على مغادرتها بذريعة حماية المواطنين من القتلة (...) من يقتل من؟ مذهولا يسأل الشجر، ولا وقت لأحد لكي يجيب جبلا أصبح أصلعا، مرة لأنّ فرنسا أحرقت أشجاره حرقا تاما كي لا تترك للمجاهدين من تقية، ومرة لأنّ الدولة الجزائرية قصفته قصفا جوّيا شاملا حتى لا تترك للإرهابيين من ملاذ، باستطاعتنا أن نبكي: حتى الأشجار لم يعد بإمكانها أن تموت واقفة"[29].

كانت مأساة حقيقة غيّرت ملامح الوطن، كشفت عن غربة الإنسان في بلده، وخوفه الدائم من كلّ شيء، كما تركت أثارا لا ولن تمحها الأيام.

خاتمة:

كانت هذه ورقتنا البحثية الموسومة بـ: "ذاكرة الوطن في ثلاثية أحلام مستغانمي" إنّها تختصر عمرا طويلا من تاريخ الجزائر العريض في الكفاح والنضال، رصدت ملامح كثيرة للثورة الجزائرية وعرضت وجها آخر للوطن دخل فيه في نفق مظلم، وعمت فيه الفوضى والموت العشوائي والانفلات الأمني، وهي في كلّ ذلك تجسد خطابا غاضبا مشتعلا بالغيرة على هذا الوطن، الذي يحترف نسيان أولاده وثواره ليغدو غرباء في أوطان ليست بأوطانهم.

لا يمكن أبدا عزل الأدب الجزائري عن جزائريته تاريخا مُشَرفا ووَجَعًا مُؤْلما، لأنّ الأدب أصلا مأخوذ بتتبع التاريخ والواقع، حتى وإن اتجه الأدب إلى الرمزية والجمالية فإنّه يظل مشدودا إليهما، ولذلك كانت الثورة الجزائرية والمأساة الوطنية مادة لكتابة صفحات من الأدب الجزائري وصفا وإبداعا ومقاومة، وهو ما وقفنا عليه في ثلاثية أحلام مستغانمي في لوحات شفافة تنقل إلى الأجيال عبر العصور والأزمان، ذلك أنّ النص السردي الذي لا يرصد التاريخ ومحطاته نص مبتور الأصل، مقطوع الفرع، محدود المستقبل.

الهوامش والإحالات

(1)– مخلوف عامر، الرواية و التحوّلات في الجزائر، منشورات اتحاد العرب، دمشق، 1998، ص 88.
(2)– ينظر : المرجع نفسه، ص 17.
(3)– سماحي هاجر، الثورة الجزائرية في مخيال المحكي النسوي، مجلة دراسات، ع2، جوان 2018، ص113
(4)– أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد، دار موفم للنشر، الجزائر، ط1، 1993، ص 15.
(5)– المصدر نفسه، ص 15.
(6)– المصدر نفسه، ص 16–17.
(7)– المصدر نفسه، ص 17.
(8)– المصدر نفسه، ص 23.
(9)– المصدر نفسه، ص 17.
(10)– الصدر نفسه، ص 23.
(11)– المصدر نفسه، ص260.
(12)– المصدر نفسه، ص 20.
(13)– المصدر نفسه، ص 20.
(14)– عبد الحميد بورايو، منطق السرد، دراسات في القصة الجزائرية الحديثة، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، 1994، ص 122.
(15)– أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد، ص 258.
(16)– المصدر نفسه، ص 260.
(17)– المصدر نفسه، ص 256.
(18)– المصدر نفسه، ص311.
(19)– المصدر نفسه، ص313–314.
(20)– أحلام مستغانمي، فوضى الحواس، الشركة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2004، ص135.
(21)– المصدر نفسه، ص 193–194.
(22)– المصدر نفسه، ص195.
(23)– المصدر نفسه، ص 62.
(24)– المصدر نفسه، ص 72.
(25)– أحلام مستغانمي، عابر سرير، الشركة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2004، ص 7.
(26)– المصدر نفسه، ص 14.
(27)– ينظر: موقع ويكيبيديا.
(28)– أحلام مستغانمي، عابر سرير، ص 16.
(29)– المصدر نفسه، ص 20.